سلسلة: علماء الإسلام وملحمتهم التقويمية عبر التاريخ

مقدمات نحو صياغة أنموذج منظوري إرشادي إسلامي عام في الفقه والعلوم

(5) صناعة الفقه: التهجينية الغزالية

مقدمة

عاصر الفقيه الأصولي أبو حامد: محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الشافعي الطوسي (450 هـ / 1058 م - 505هـ / 1111 م) (صورة متخيلة له) بداية العهد السلجوقي في أوج مجده ولعب دوراً محورياً في التمكين السياسي والعقدي لهذا الفرع التركي من المسلمين المنتصرين للحزب السني في الإسلام.

ونُذكر بأن السلاجقة فرع من الترك الطوقون (Togon) – أوغوز (Oguz) {الخريطة الأولى إلى اليمين}، الذين هاجروا جنوباً من آسيا بمحاذاة سهوب التركستان الغربية واجتازوها إلى ما وراء النهر (نهر جيحون)، حيث احتكوا بالإسلام واعتنقته غالبيتهم، ثم استمروا في انسيابهم الدافق نحو الغرب فاخترقوا بلاد فارس، وبلاد الجزيرة الواقعة بين نهري دجلة والفرات، ثم دخلوا سوريا، ومنها انزاحوا شمالاً، أفواجاً تلو أخرى، على شكل أمواج بشرية متلاحقة، نحو السفوح الجنوبية لهضبة الأناضول، على التخوم الفاصلة بين العالم الإسلامي والعالم البيزنطي {الخريطة الثانية}.

وقد نتج عن هذا التدفق البشري المتواصل نحو الغرب، وليس هو الأول ولا الأخير في اندفاعات هذا الشعب البادي، الذي لم يكن يختلف كثيراً في أعرافه عن أعراف القبائل العربية قبل الإسلام، حصول ضغط بشري، تبعه ضغط عسكري هائل على التخوم الجنوبية للدولة البيزنطية، أفضى في الأخير إلى انهيار الأسوار الاصطناعية المشيدة لاحتجازه، للينجرفوا نهو هضبة الأنضول كالسيول الجارفة، ليتقرر مصير الأناضول نهائياً، في معركة "ملاذكرد" (منزكرت)

(Manzikert) **الشهيرة سنة 463 هـ/ 1071 م[1] في ولاية موس (اللون الأخضر على الخريطة)**

، يوم انتصر جيش أبي شجاع ألب أرسلان السلجوقي (ت: **465 هـ**)[2] **على جحافل جيوش الإمبراطورية البيزنطية، بعد مناوشات دامت لعدة عقود من دون حسم.**

كان أرسلان قد طلب الصلح والمهادنة، خصوصاً وأن عدد أجناده لم يكن يتجاوز الخمسة عشرة ألف مقاتل، مقابل مائتي ألف بجانب الروم، إلا أن رومانوس الرابع ديوجين (يسميه المؤرخون المسلمون (أرمانوس) (Ρωμανός Δ´ Διογένης) (Romanos IV Diogenes) الإمبراطور خلال الحقبة (1068 – 1071 م) {يظهر في هذا النحت إلى اليسار وهو يتوج مع زوجته من طرف المسيح عليه السلام!!!! }

، لم يقبل بذلك معتداً بجيوشه الجرارة، فاستعد ألب أرسلان للشهادة بعد أن عهد بالسلطنة إلى ابنه ملكشاه.

هذا الانتصار المفاجئ وغير المتوقع في 26 أغسطس من سنة 1071 م، قلب موازين القوى بين الدولتين العالميتين آنذاك رأساً على عقب، ليعقبه توازن هش سيستمر لعدة قرون أخرى.

لم يجد الأمبراطور البيزنطي ألكسيوس الأول كومنينوس (Alexios I Komnenos) (Αλέξιος Α' Κομνηνός**) (1118-1058)**

، الذي حكم خلال الفترة (1081 م – 1118 م) عند هذا المفترق، بدأ من طلب نجدة الكنيسة الغربية، بالرغم مما كان يفصل بين الكنيستين من عداوة عقدية وسياسية مستحكمة

---

[1] انظر ابن العماد الحنبلي في "شذرات الذهب" (3: 311)، طبعة دار الآفاق الجديدة، ب. ت.، بيروت.

[2] هو محمد بن جعفري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق الملقب عضد الدولة.

وعلى أكثر من صعيد، خصوصاً وأن المارد **السلجوقي** الجديد صار قاب قوسين من احتلال عاصمة الإمبراطورية نفسها: **القسطنطينية**، بعد أن سيطر سيطرة تامة ومطلقة على مصير كل آسيا الصغرى.

لم تتأخر استجابة الكنيسة الغربية لهذه الطلب، بل جاءت فورية، وعلى مستوى الحدث نفسه، يحدوها هاجس قديم في نقل حربها المقدسة شرقاً، إلى أرض العسل واللبن، بعد أن استعصى عليها مسلمو الأندلس في الغرب، لتنطلق بداية الحروب الصليبية، في النداء الشهير للبابا **أوربان الثاني** (Urbain II) (1088 م –1099 م) ، الذي أعلنه في مجمع كليرمون (Clermont)[3] سنة 488 هـ/1095 م، لتستمر الحرب مستعرة بين العالمين، زهاء قرنين كاملين حصدت فيها الأخضر واليابس.

وقد كان خافز البابا من وراء هذه الاستجابة الفورية، تحقيق هدفين ملحين، ظلا على أجندة الكنيسة لقرون بدون حسم أو بوادر حلول مرضية:

ألهدف الأول: استغلال هذا الظرف الجديد لإعادة توحيد الكنيسة منذ انشقاقها التاريخي سنة 1054 م إلى كنيستين منفصلتين على صعيد العقيدة والطقوس: **شرقية يونانية** وعاصمتها **القسطنطينية**، و**غربية لاتينية** وعاصمتها **روما**.

والهدف الثاني: تجميع أوروبا في وحدة دينية سياسية تحت مظلة البابوية المقدسة، وإشغال نبلاء أوروبا العاطلين بحروب خارجية، وإطماعهم في مغانم الفتح، بدل الاقتتال فيما بينهم في حروبهم العبثية التي لا تكاد تنتهي.

وهما أمران ملحان، لو تما، بحسب ما خططت له البابوية، لمكناها من ضرب عصفورين بحجر واحد.

وقد تمكنت الكنيسة فعلاً من استنفار وتجهيز **سبع حملات صليبية متتالية**، شاركت فيها كل دول أوروبا تقريباً، من أقصى النرويج شمالاً وحتى صقلية جنوباً، ومن الجزر البريطانية غرباً وحتى تخوم الأناضول شرقاً (خريطة بالدول

[3] مدينة كليرمون فيران (Clermont-Ferrand) الفرنسية الحالية.

الأوروبية التي شاركت في فترة من الفترات في الحروب الصليبية}.

لكن، وعلى الجانب الشرقي، حيث آلت مصائر المسلمين إلى الدولة العباسية الثانية في طورها المترهل، كان **القائم بأمر الله أبو جعفر عبد الله ابن القادر العباسي** (422 هـ – 464 هـ)، الخليفة الصوري، أول من مهد ل **ملك السلاجقة** عندما كاتب **أبا طالب محمد بن مكيال بن سلجوق بن تقاق التركي**: سلطان الغز المعروف باسم "**طغرلبك**" (ت: 455 هـ) يستنهضه للقدوم عليه ببغداد لتخليصه من قبضة القائد البويهي **أبي الحرث أرسلان بن عبد الله البساسيري** التركي (ت: 451 هـ)[4] الذي كان قد عظم أمره، ودعي له على المنابر، وجلبت الأموال باسمه، حتى أن الخليفة ما كان يستطيع أن يقطع في أمر ذي بال بدون استشارته أو موافقته.

دخل "**طغرلبك**" بغداد في يوم مشهود هو 25 من رمضان 447هـ، الموافق ل23 من ديسمبر 1055م، بأرتاله الجفاة الذين لم تتمكن بعد أخلاقيات الإسلام من قلوبهم، فاستباحوا بغداد، وسطوا على النساء يختطفونهم من الحمامات، قبل أن يتفرغوا لمهمتهم الأولى، التي دعوا إلى بغداد من اجلها، وهي القضاء على نفوذ دولة **بني بويه الشيعية** التي سيطرت على مقاليد الخلافة لمدة ناهزت القرن وزيادة (334 هـ –447 هـ). وهي الفترة التي شهدت **التأسيس للحزب الشيعي الإحدى عشري** والدعاية له، وبروز أكابر المنظرين له أمثال:

[4] كان مملوكاً لبهاء الدولة بن بويه. أنظر: "شذرات الذهب" (3: 287).

1) الأخباري: أبي جعفر، محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني (ت: 329 هـ) مؤلف كتاب: "الكافي" ،

2) والفقيه والأخباري: الشيخ أبي الحسن ، علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي المعروف بلقب: "الصدوق الأول" (ت: 329 هـ)، صاحب كتاب: " الإمامة والتبصرة من الحيرة"، الذي هو بمثابة "البيان السياسي الخرافي" (مانيفستو) لهذا الحزب،

3) وابن الأخير: أبي جعفر محمد بن علي القمي المعروف ب "الصدوق الثاني"! (ت: 381 هـ) صاحب كتاب: "من لا يخضره الفقيه" ، أحد الأصول الأربعة لهذه الطائفة.

4) والرجالي: أبو الحسين أحمد بن الحسين بن عبيد الله بن إبراهيم الغضائري (ت: 411 هـ)، صاحب كتاب: "الضعفاء" المعروف ب "رجال ابن الغضائري"

5) والفقيه والمتكلم: أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان الحارثي، الشهير بلقبي: المفيد، وابن المعلم (ت: 413 هـ). الذي حظي، بسبب تشيع بني بويه، بحظوة ومنزلة كبيرتين لدى عضد الدولة البويهي (ت: 376 هـ)، الذي كان يزوره في داره ويعوده إذا مرض.

6) والأصولي والفقيه والمتكلم والشاعر المخضرم: الشريف أبي القاسم علي بن الحسين المرتضى (355 - 436 هـ) ،

7) والرجالي: أبي العباس ، أحمد بن علي بن أحمد النجاشي الأسدي الكوفي (372 – 450 هـ)، صاحب كتاب "الرجال" المعروف باسمه،

8) والأصولي: أبي جعفر، محمد بن الحسن الطوسي (385 هـ – 460 هـ)، المعروف لدى الإحدى عشرية ب "شيخ الطائفة"، مؤلف أصلين من أصول الشيعة الجعفرية الأربعة: "الاستبصار"، و"التهذيب"، وغير هؤلاء {وانظر لمزيد كتابنا: "الأصولية الجعفرية والاجتهاد المؤطر بالأسطورة"} ، وتوجد منه مقتطفات على موقعنا.

أما كيف تمت السيطرة لدولة السلاجقة الأتراك السنيين على آل بويه المتشيعين، فلا بد من الرجوع القهقرى إلى حيث كانت البداية.

تقول المصادر الصينية بأن الكيان السياسي التركي في آسيا بدأ في القرن الثالث قبل الميلاد مع قبائل الهون، حيث تمكن الهونيون في عهد" مته خان" من تأسيس إمبراطورية كبيرة شاسعة الأطراف بعد انتصارهم على المغوليين والليوئجيين. وقد بلغت هذه الإمبراطورية من العظمة أن أخضعت الصين الغربية وطرق تجارتها لسيطرتها المطلقة.

وما أن انهارت هذه الامبراطورية الهونية في آسيا، حتى ظهرت امبراطورية "غوك تورك" على السفوح الشرقية لجبال (آلتاي) عام 552م، حيث تم اعتماد كلمة "الترك" لأول مرة كاسم رسمي لهذه الجموع.

وسيدخل الإسلام بلاد التركستان الغربية على يد قتيبة بن مسلم الباهلي خلال الفترة (88 هـ/706 م -96 هـ/714 م)، ويستمر يشق طريقه بثبات إلى انهيار الدولة الإيغورية التركية سنة 226 هـ/840 م.

أما التحول الكبير للأتراك نحو الإسلام، فلن يحصل سوى بعد قرن من هذا التاريخ، عندما شرح الله صدر سالطوق بوغراخان للإسلام وأسلمت معه أكثر من مائتي ألف خيمة، أسس على إثرها الإمبراطورية القاراخانية عام 323 هـ/ 943 م.

وسيوسع حفيده هارون بن موسى بوغراخان هذه الإمبراطورية ويضرب النقود باسمه ناقشاً عليها لقبه: "شهاب الدولة" و"ظهير الدعوة"، في مسكوكات سنة 332 هـ/ 992 م.

ولهارون هذا في الذاكر الإسلامية التي لا تبلى، مأثرة ومفخرة إسلامية أخرى، وهي كونه تبنى كتابة اللهجة الايغورية بالحرف العربي، الذي سيستمر مسلمو تركستان الشرقية

المتاخمة للصين في استعماله لقرون متتالية إلى اليوم الأسود في ذاكر شعب الويغور الموافق ليوم 23 أكتوبر 1969، حين قرر الحزب الشيوعي الصيني منع هذا الحرف من التداول ضداً على إرادة المسلمين الويغور، على ما هو معهود في الدول الشمولية المتعسفة، التي لا تحترم حقوق أقلياتها، أو الديكتاتورية المغتربة عن شعوبها، حال ما فعل أتاتورك 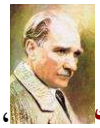، بإيعاز من الغرب، بعد الإطاحة ب "الخلافة العثمانية"، مفخرة الأتراك والمسلمين لقرون، بعد

أن أذن مؤذن برنامج الوجود بزوالها، لعدم التواؤم مع العصر، سنة **1924** م، ليستبدلانه معاً بالحرف اللاتيني (الذي يراعي الصواتية الصينية في حالة الصين).

قلت:

ليلاحظ القارئ الحضاري أن احتلال الصين لتركستان الشرقية واستغلالها اقتصادياً مع الإجحاف بحقوق مواطنيها، لا يختلف في كثير عن الاستغلال الاستعماري، الذي عانت منه الصين نفسها، إلا أن الأدهى والأمر في هذا الاحتلال، والذي ينزع ورقة التوت التي تتستر بها الصين عن مثل هذا الانتهاكات، يكمن في تطبيق سياسات تذويبية واجتثاثية، تستهدف إحلال العنصر الصيني مكان أهل البلاد الأصليين، من خلال سياسة إغراقية تستهدف تحقيق أغلبية سكانية صينية ساحقة في البلاد تضيع على المسلمين حقوقهم فيها بعد أن يتلاشوا إلى أقلية صغيرة. وهو ما يمكن للصين أن تعمله، وهي التي لها فائض سكاني بليوني مع كل جيرانها في المستقبل المنظور.

وهو ما يجب أن يتنبه له كل المسلمين الواقعين في منطقة الفراغ المبينة في الخريطة المصاحبة، والحضاريون منهم خاصة، ويعملوا على هضم ما نكتب في هذا الموقع والدعاية له متى اقتنعوا به، والعمل الدءوب على تجاوز نكبات التاريخ بتحليلها ونقدها عقلانياً، وليس بالتستر عنها، وتجديد الأمل في النفوس على الاستئناف والمثابرة على أهداف الإسلام، الرحمة للعالمين، كسنة من سنن التدافع من أجل استحقاق الاستخلاف.

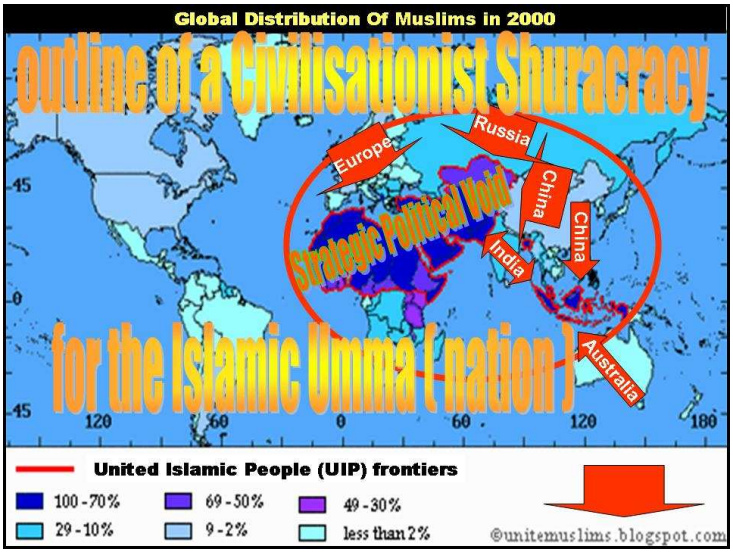

قلت:

وقد أبلى **القراخانيون** المسلمون البلاء الحسن في نشر الإسلام بين القبائل غير المسلمة، واستطاعوا سنة 435 هـ/ 1043 م استمالة **القرغيز** للإسلام وبايعوا الخليفة العباسي أبا العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر الملقب **بالقادر بالله** (336هـ/947 م - 422هـ/1031) وضربوا العملة باسمه ودعوا له على منابر بلادهم.

وإلى جانب **القراخانيين**، فقد كانت قبائل **القرلوق** من أوائل القبائل التركستانية الشرقية في الدخول إلى الإسلام، وعرفوا كغيرهم من القبائل التركية الأخرى مثل: **الغز** ، و**السلاجقة**، ثم **العثمانيون** بوقوفهم الصامد والقوي مع الإسلام استمر لقرون ولا يزال، بالرغم من كبوات وعثرات الطريق التي تصاحب كل سيرورة تاريخية.

وبجانب هؤلاء الأتراك ممن شرح الله صدورهم للإسلام، فقد بقي آخرون على وثنيتهم، يحاربون الدعوة الإسلامية ويُناصبونها العداء، مستمدين العون من الصينيين، حال القبائل **الكورخانية**، التي يطلق عليها أيضاً اسم: **الخطل** أو **القراخطائيون**.

قلت:

ولئن مثلت معركة: "ملاذكرد"، وكما مر بنا، مفصلاً تاريخياً في تأمين الحدود الغربية لدولـــة الـــسلاجقة، فـــإن معركة: "طراز" [5]التي انهزم فيها الأتراك غير المسلمين[6]، أنهت التدخل الصيني نهائيا بين الأتراك.

وسيلعب العنصر التركي القادم من تركستان الشرقية دوراً بارزاً في تأسيس دول إسلامية عظيمة مثل:

1) **الدولة الغزنوية،**
2) **والدولة الطولونية،**
3) **والدولة الاخشيدية،**
4) **والدولة السلجوقية،**
5) **والدولة الخوارزمية،**
6) **والدولة التيمورية (المغولية)،**
7) **والدولة العثمانية، التي بزتهم جميعهم من جهة الانتشار وطول العمر.**

وكلهم، وبدون استثناء، إما ساعدوا على نشر الإسلام في ربوع ممالكهم، أو حموا الاقطار الاسلامية الاخرى من الغزو الصليبي، ثم من الاستعمار الأوربي الذي أعقبها، لفترة ناهزت العشرة قرون.

أضف إلى ذلك أن الكثير من أساطين الفكر الإسلامي ينتمون إلى هذا العنصر البشري:

أ) **ففي الحديث برزت أسماء: عبد الله بن المبارك، والفضيل بن عياض، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وغيرهم كثير**
ب) **وفي الطب برز: الفارابي، وابن سينا،**
ت) **وفي الرياضيات برز محمد بن موسى الخوارزمي،**
ث) **وفي الكيمياء والفيزياء والحضارات المقارنة برز أبو الريحان البيروني،**
ج) **وفي اللغة العربية، برز أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي، الزمخشري،**
ح) **وفي العقائد والتوحيد برز أبو منصور الماتريدي،**

وغيرهم ممن خدموا الإسلام وحضارته وقدموا للأجيال خدمات جلية لا تمحى أبد الدهر.

---

[5] *هي المدينة التي انتصر على أبوابها القائد المسلم زياد بن صالح سنة: 134 هـ/ 751 م.*

[6] بالرغم من مساندة الإمبراطورية الصينية لهم بمدهم بأعداد هائلة من القوات الصينية، حيث قتل أكثر من خمسين ألف صيني واسر ما يناهز العشرين ألفا منهم،

أما بالنسبة للعنصر السلجوقي خاصة، الحاضن لفكر الغزالي، فقد هاجر جدهم سلجوق مع أهله وعشيرته إلى بلاد الإسلام واعتنق الإسلام ونذر نفسه للجهاد ضد وثنيي الترك، ورُزق ثلاثة أبناء: ميكائيل، وأرسلان، وموسى.

أما الولد البكر: ميكائيل فقد استشهد أثناء إحدى معاركه مع الترك الوثنيين وخلف من ورائه بدوره ثلاثة أبناء وهم: طغرلبك: محمد أكبرهم، وإبراهيم أينال، وجعفر بك داود.

وكان شأن الثلاثة عظيم بين عشائرهم إلى درجة أن انقادوا لهم سلسين لشجاعتهم وبطولاتهم.

ولما عزم هذا الجمع المتكتل على الانتقال إلى بخاري للإقامة بها، توجس أمير بخارى "بوغراخان" منهم خيفة فاعتقل طغرلبك، إلا أن أخاه داود سيتمكن من إخراجه عنوة من السجن ليحولوا وجهتهم إلى خراسان مركز الدولة الغزنوية التي خافتهم بدورها وحاربتهم، ليكون النصر حليف السلاجقة هذه المرة، حيث سيتمكنون من الاستيلاء على مدينة مرو ثم مدن: نيسابور، وجرجان، وطبرستان، وكرمان، وبلاد الديلم خلال الفترة (429 هـ – 432هـ), إلى أن اصطدموا بدولة بني بويه الشيعية سنة 434 هـ. فاستولوا على خوارزم وعقدوا صلحاً هشاً معهم.

هنا تسمى طغرلبك بلقب "الشاهنشاه" (ملك الملوك) وخطب له على المنابر.

ثم عن لهم أن يحولوا وجهتهم غرباً لينقلوا جهادهم إلى بلاد الروم فانتصروا عليهم في معارك متتالية، حتى صاروا قاب قوسين من افتتاح القسطنطينية عاصمة بيزنطة، فآثر ملك القسطنطينية الصلح مع طغرلبك، الذي وافقه إلى ذلك على شريطين:

أ) إعادة افتتاح المسجد القديم في القسطنطينية الذي كان قد بناه الفاتح: مسلمة بن الخليفة الأموي: عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي (66 هـ/685 م – 121 هـ/738 م)

ب) أن يخطب لطغرلبك فيه يوم الجمعة.

وهو الأمر الذي كان قد دفع بالخليفة العباسي القائم بالله ليكتب له يستقدمه إلى بغداد.

قلت:

مرت الخلافة العباسية بثلاثة أطوار إلى هذه الحقبة التاريخية من صيرورتها السياسية:

أ) **طور القوة والتمكين**: وهو الطور الذي بدأ المنصور العباسي واستمر حتى عهد الخليفة المتوكل العباسي (236 هـ – 247هـ)، ثم

ب) **طور الضعف وبروز سيطرة الأجناد الأتراك على مقاليد الخلافة**: من عهد الخليفة الثاني عشر المستعين بالله (248 هـ – 252 هـ) وحتى عهد الخليفة "الثاني والعشرون": المستكفي بالله (333هـ – 334 هـ)، حيث استقوت على الخلافة في عهده **دولة بني بويه التركية**، بميولاتها الشيعية الجعفرية، التي كانت في طور التأسيس، منذ وفاة الحسن بن علي العسكري: الإمام الحادي عشر للشيعة **"الإحدى عشرية + العنقاء"** سنة 260 هـ، من دون أن يعقب من ولد، موقعاً للتشيع الأسطوري في عنق زجاجته المهدوية المعهودة القائلة بالغيبة، والرجعة،....الخ.، من جديد، على ما فصلنا في كتابنا: "المهدي اللا-منتظر لا عند اليهود، ولا عند

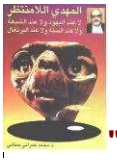

الشيعة، ولا عند السنة، ولا عند البرتغال"

فترة طمع الإسماعيليين في استبدالها، حيث لم تعاني الخلافة العباسية المترهلة خلال هذه الحقبة التاريخية، من امتهان القواد والسلاطين البويهيين، ذوي الميول الشيعية الجعفرية لها فحسب، بل أيضاً من أطماع الفرع الأول للتشيع أي: الإسماعيليين، منذ أن انتقل العبيديون إلى مصر سنة 356هـ، وأصبحت لهم دولة عقدية يؤمها المتشيعون من كل أنحاء العالم الإسلامي للتعلم هناك، حيث راسل الخليفة الفاطمي الثامن: **أبو تميم، معد: المستنصر بالله**، بن علي: الظاهر لإعزاز دين الله (420 هـ/11029 م – 487 هـ/1094 م) قائداً تركياً آخر وهو: أبا الحارس أرسلان التركي البساسيري {نسبة إلى بلدة (بسا)}، يزين له في القضاء على الخلافة العباسية في بغداد وإقامة الخلافة الفاطمية بدلها.

وكان البساسيري من مماليك **بهاء الدولة البويهي**، وعرف بالشجاعة وشدة البأس، وهما خصلتان مطلوبتان في هذا العهد، جعلتاه يترقى بسرعة في الخدمة العسكرية إلى أن أصبح من قادة الجند الكبار فقربه الخليفة "السادس والعشرون" العباسي: **القائم بالله** (422 هـ – 467 هـ) وعلا شأنه، حتى أصبح الخليفة القائم بالله لا يبث في أمر ذي بال من دون أخذ مشورته.

ولم يزل **البساسيري** في ترقي حتى خطب له على منابر العراق بعد الخليفة والسلطان البويهي، واستولى على الكثير من الأمصار والمدن.

لكن، إن كان قدوم **طغرلبك** إلى بغداد قد حسم أمر **البويهيين**، فإن أخاه **إبراهيم** الذي كلفه **طغرلبك** بالتصدي للبساسيري، استعبطه الأخير ومناه وزين له في الاستحواذ على مكانة أخيه، فوجد كلامه هوى في نفس **إبراهيم**، لتقع بين الأخوين حرب ضروس استغلها **البساسيري** في الاستيلاء على بغداد ونفي الخليفة العباسي القائم بالله إلى الموصل، وقام يدعو للفاطميين جهاراً ببغداد سنة 450هـ.

ولولا أن تمكن **طغرلبك** من القضاء على عصيان أخيه وقتله، ثم على **البساسيري** نفسه في السنة الموالية، وإعادة الخليفة المنفي إلى منصبه، لما بقي للعباسيين من ذكر بعد هذا التاريخ، ولا لمذهب السنة من تأثير.

قلت:

ويجب أن نلحظ عمقين آخرين في الخلاف البويهي – السلجوقي، ذلك:

أ) أن بلاد تركستان وهي: كاشغر، وبلاد ساغون، وختن، وطراز، وغيرها مما جاورها من بلاد ما وراء النهر، ظلت بيد **الملوك الخانية** من **الترك** وهم من نسل **فراسياب** ملكهم الأول المنازع لملوك **اليكنية** من **الفرس**.

ب) بما أن النظرية الإسلامية السنية في الحكم، قولبت من طرف فقهاء السلطة، لتتمحور حول **أحقية النسب القرشي في حكم المسلمين دون سواهم**، واختلقت عشرات الأخبار في هذا المعنى، قل من ساءلها يومها {أنظر على موقعنا: "**أحاديث في السياسة لا تصح: الأئمة من قريش**"}، لوجود تخريف أسطوري أكبر وداهم، لفقت له وروجت على لسان العامة آلاف الأخبار من طرف الأحزاب الشيعية {أنظر على موقعنا: "**المهدي اللا-منتظر**"، و"**الأصولية الجعفرية والاجتهاد المؤطر بالأسطورة**"}، لم يجد العنصر التركي المسلم، ولا غيره من العناصر الإسلامية الأخرى من مدخل للاستئثار بالحكم، سوى بالتدثر بهذه المظلة النظرية السنية، من خلال إظهار الولاء لهؤلاء الخلفاء العباسيين الصوريين والمحظوظين في آن، ماداموا ليس يفتقدون الشرعية لحكم المسلمين دونهم فحسب، بل لانتفاء قوام

الحكم فيهم، لافتقادهم للقوة وللعصبية، والذين لم يبق لهم من مسمى الخلافة سوى الخطب على منابر المساجد في الجُمعات والأعياد، ليتحكم فيهم الأجناد، وهم قوام الدولة، ما تحكم فيهم البويهيون من قبل.

ومنه يتبين أن حكم المسلمين، سنة وشيعة، وإلى هذه الحقبة المحورية، تم تحت مظلات غير شرعية بمرة.

ولما توفي طغرلبك، المؤسس للدولة السلجوقية سنة 455 هـ، دون وريث يخلفه على الحكم، نشب صراع على السلطة حسمه ألب أرسلان (1029 م – 1072 م) ، وهو ابن أخي طغرلبك لصالحه بمساعدة وزيره المحنك والداهية السياسي والاجتماعي: نظام الملك: الحسن بن علي (408 هـ – 485 هـ)، حيث سيتمكن ألب أرسلان من استعادة هيبة الدولة أمام البيزنطيين، بل وهزمهم في معركة "ملاذكرد" في شهر ذي القعدة 463هـ/ أغسطس 1071م، وأسر إمبراطور بيزنطة: رومانوس ديوجينس، وافتداء نفسه بفدية كبيرة، كما مر.

وبعد وفاة ألب أرسلان، خلفه ابنه ملكشاه، الذي كان صغيراً فقام بالوصاية عليه وزير والده نظام الملك (ت: 485 هـ).

وقد أدرك هذا الوزير، بدهائه السياسي وحنكته في تسيير دواليب الدولة، وله مؤلف حمل عنوان: "سياست نامه"[7]، أن الولاء لدولته وما تمثله، لن يتم فقط بإزاحة القوة العسكرية للبويهين، ما لم تصحبه وتواكبه حرب معلنة أخرى، لا هوادة فيها، على صعيد الأفكار والعقائد أيضاً، وإلا نبتت الأفكار من رمادها من جديد، حتى بعد القضاء المبرم على معتنقيها.

وقد جاءت مقاربته لهذه الحرب الفكرانية والعقائدية جذرية، بل ومعاصرة من عدة وجوه، لا تفرق بين جنود السيف وجنود القلم، وكمنت في انتهاج سياسة تعليمية شاملة أنشأ لها مدارس فكرانية (إيديولوجية) خاصة حملت اسم: "النظاميات"، بثها وزرعها في كل من: بغداد، وطوس، ونيسابور، وأصفهان، وهراة وغيرها من البلاد.

وكان طبيعياً أن تكون أشهرها وأعظمها على الإطلاق "نظامية العاصمة بغداد" التي اختار لها نظام الملك، وهو الأديب والسياسي المحنك، مشاهير العلماء للتدريس فيها وأغدق عليهم من العطاء بسخاء كبير.

[7] ترجمه إلى العربية محمد العزاوي سنة 1975 ونشر بالقاهرة.

قلت:

لقد كان الهدف المتوخى من إنشاء هذه النظاميات مواجهة الدعوتين الشيعيتين والمتنافستين في آن، التي تروج لإحداها:

أ) الدولة الفاطمية المتمكنة من حكم مصر،

ب) والتيار الجعفري الإحدى عشري الذي خبت جذوته، بعد ذهاب ريح البويهيين، وانكفأ على نفسه ينتظر قدوم من لن يأتي أبداً، لاستبدال حكم الجور المحسوس والملموس والمعاش يومياً على الأرض، بحكم الخرافة الافتراضي الذي لا وجود له سوى في عالم الخيال، عالم النوكى والبهاليل!.

وقد اتسمت هذه الحقبة التاريخية على الصعيد الاجتماعي والسياسي، زيادة على ما تقدم، بظاهرتين سلبيتين أضرتا بالمجتمع الإسلامي أيما ضرر.

أولاهما: غياب الأمة واستفراد المتغلبين من الأجناد البويهيين ثم السلاجقة من بعدهم، بمقاليد الحكم دون الخليفة العباسي الصوري، الذي أصبح منصبه شكلياً فقط، حيث لم يتبق له من مراسيم الحكم والسيادة سوى الخطب التي تلقى باسمه في مناسبات الجمعات والأعياد مقرونة باسم الحاكم الزمني الفعلي: السلطان البويهي أو السلجوقي.

وثانيهما: كثرة القلاقل والانتفاضات وعدم الاستقرار السياسي والثورات شبه الدائمة في أطراف الدولة.

وهي ظواهر لازمت هذا النوع من الحكم المستبد. حتى أصبحت سمة مميزة لتاريخ المنطقة بعد الإسلام ما كانت سارية مع أمم أخرى قبله، لانفتاح حدود المنطقة الطبيعية على كل غزو، وتنوع التركيبة العقدية والبشرية للمجتمع، ووجود خزانات بشرية هائلة لأقوام وشعوب مختلفة، على تخوم الإمبراطورية وحدودها، تتحين الثورة أو الانقضاض، كلما سنحت لها الفرصة، أو واتتها الظروف، إما بسبب من داعي يدعو إلى نفسه أو حزبه، أو بسبب من جفاف أو مجاعات مصاحبة، مع كل ما كان يواكب ذلك عادة، من عدم استقرار في المركز والأطراف معاً، وفساد إداري واجتماعي واقتصادي وبؤس مقيم وظلم لا يرتفع، تنصب شروره كلها لتصيب إما بوابل مغرق أو بطل خانق، كل طبقات المجتمع وكل مؤسساته الدينية والدنيوية سواء.

لكن، وبالرغم من كل هذه المآسي المصحوبة بالهزات العنيفة التي ظلت لعقود تطال كل شرائح المجتمع، فالملفت، وعلى أكثر من صعيد هو أن العالم الإسلامي، ظل متماسكاً على صعيد العقيدة ككل، حتى وهو يشهد تفككاً

مستمراً لجبهاته الداخلية الواحدة تلو الأخرى، وانهياراً عاماً على صعيد الأخلاق، والممارسات الدينية المفرغة رسمياً من كل روح ومقصد.

قلت:

في هذا القرن، وكالقرن الرابع قبله، ظهر علماء مخضرمون يدرسون وينظرون، ويؤلفون في شتى مناحي المعارف الدينية والدنيوية النظرية والتجريبية أمثال:

1) أبي الحسن علي بن أبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس المصري (ت: 399 هـ) في الفلك،
2) وأبي بكر محمد بن الحسين الكرخي (ت: 407 هـ) في الرياضيات،
3) وأبي علي الحسن بن الهيثم البصري (ت: 430 هـ) في الطبيعيات والبصريات،
4) وأبي الريحان محمد بن أحمد البيروني (362 هـ – 440 هـ) في علم الإناسة والمعادن والحضارات المقارنة،
5) وأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (432 هـ – 487 هـ) في الجغرافيا، وغيرهم.

وسوف يستمر البحث العلمي في تركيز مكاسبه التي حققها في القرن الرابع، لتبرز إلى الوجود أول التصنيفات العامة في العلوم، من منظور إسلامي صرف، كما سنجد عند الإمام ابن حزم الأندلسي (ت: 456 هـ) في كتاب: "مراتب العلوم، وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض"، وتكريس اللغة العربية كلغة عالمية في العلوم وكقنطرة إجبارية وإلزامية، لكل من يتوخى البحث في مثل هذه الموضوعات.

وبالتوازي مع هذا المنحى اللغوي الحضاري التوحيدي العام، بدأت تظهر أيضاً في هذا العصر، أول بوادر الانشقاقية والازدواجية اللغوية في شقها الشعوبي النزعة كما سنجد عند:

أ) الشاعر الفردوسي الطوسي (322 هـ – 405 هـ) صاحب الملحمة الفارسية في تاريخ ملوك فارس الأسطوري: "**الشاهنامه**" ، التي تحتوي على ما يناهز ستين ألف بيت شعر، تشيد بالخرافة والأسطورة وبالديانة المزدكية!، وليس بها سوى 430 كلمة بالعربية!، أو عند غيره، ممن سيؤلفون كل كتبهم أو جلها بالفارسية، مما سيفقد تواصلهم مع باقي الشعوب الإسلامية شرقاً وغرباً مع مرور الزمن، وهم كانوا إلى هذه الفترة الزمنية، من أبرز صناع هذه الحضارة أو حاملي لوائها في شتى المعارف والمجالات.

في مثل هذه البيئة الغنية بالمتناقضات، ولد **أبو حامد محمد بن محمد الغزالي** بمدينة طوس من إقليم خراسان سنة 450هـ/1059 م، لوالد فقير يشتغل بغزل الصوف، فنسب الولد إلى صناعة والده[8].

وعندما شعر هذا الوالد بدنو أجله أوصى بابنيه أبي حامد وبأخيه أحمد إلى صديق صوفي ليقوم بأمرهما وتعليمهما.

هذه التنشئة الصوفية، ستطبع كل حياة الغزالي اللاحقة بطابعها الدامغ والمميز وتطغى على ما سواها من الاعتبارات المؤثرة في حياته، لتطفو دائماً إلى السطح، رغم كل التجارب التي سيمر منها في صعوده الاجتماعي ونزوله، وفي شكه ويقينه، وفي كل ما لامس أو قارب أو راكم من معارف إسلامية وغيرها.

1) تجربة الغزالي كعالم سلطة

لعل أهم حدث، أثر في حياة الغزالي العلمية أيما تأثير، التحاقه بحلقة إمام الحرمين **أبي المعالي الجويني** سنة 473 هـ، حيث لزمه لمدة ناهزت الست سنوات، أخذ عنه فيها جل معارفه في **المذهب الشافعي**، و**فقه الخلاف**، و**علم الجدل**، و**علم الأصول**، و**علم المنطق**.

فكان من ثمار هذا اللقاء تأليفه المبكر لكتاب: "**المنحول والمنتحل في علم الجدل**".

[8] وقيل في نسبته غير هذا، بأن نسبوه إلى قرية "غَزَالة" بالتخفيف من أعمال طوس.

وأما الحدث الثاني، فحصل مباشرة إثر وفاة إمام الحرمين سنة 478 هـ، حيث اتصل الغزالي بالوزير النافذ نظام الملك، الذي أسند إليه منصب إدارة "نظامية بغداد" سنة 484 هـ، ليصبح قطب الدعاية السلجوقية ضد مناوئيها السياسيين والعقديين.

وسوف ينخرط الغزالي رحمه الله في هذه المهمة الدعائية بكل حماس الشباب منظراً، ومناظراً ومحاضراً، ليكرس الجانب الأكبر من جهده وهمته وعنايته وطاقته الفكرية، في الدعاية لهذا المشروع السياسي- الثقافي لنظام الملك، حتى أنه لم يتوانى في الرفع من مقام الخليفة المستظهر الصوري ويدافع عن منصبه المهزوز في تملق ظاهر وشطط لا يخفى حين قال[9]:

إن تقدير اقتدار الخلق على الاستبدال بالإمام والتصرف فيه بالخلع والانتقال محال! في زماننا، إذ لو أجمع أهل الدهر وتألبوا على أن يصرفوا الوجوه والقلوب عن الحضرة المقدسة!! المستظهرية لم يجدوا إليها سبيلا!، فيتعين على كافة علماء العصر الفتوى **بصحة هذه الإمامة وانعقادها بالشرع!.**

قلت:

وهو تهافت مبتذل ودعاية سمجة من موظف سلطة يومها، وإن كان له ما يبرره من منطلق منطق عصره والمستنقع الذي انحدر إليه المجتمع والدولة يومها، ثم اغتراب الغزالي نفسه، على ما يحصل عامة لكل المصلحين المخلصين في كل زمان ومكان، حين يعدمون الحيلة والنصير والقدرة على تغيير مثل هذا المنكر الداهم الذي صار للناس سجية وخلقاً.

وسيتابعه على هذا المنحى آخرون سيأتون بعده، ليكرروا المكررات، حتى بعد أن تاب هو منها ومن تبعاتها رحمه الله.

سيقول الغزالي لاحقا[10]:

---

[9] الغزالي: "فضائح الباطنية"، ص. 193.
[10] كتاب "المنخول" ورقة 82، من مخطوط الأزهر.

فكذلك نقول في المستظهر بشوكته المستولي على الناس المطاع فيما بينهم، وقد شغر الزمان عن مستجمع لشرائط الإمامة ينفذ أمره، لأن ذلك يحدث فساداً عظيماً لو لم نقل به.

قلت:

وهي حالة الاستثناء التي تحولت، بمثل هذا الشغور، إلى قاعدة عامة لا تحول ولا تزول!.

أما كيف بخليفة صوري محجور عليه ومقعد، ولا يملك من قطمير في حق التصرف بالاستقلال، حتى في أخص شؤونه الشخصية، أن يكون إماماً لازماً للأمة، إلا أن تكون هذه الأمة حقت عليها اللعنات من الله والملائكة والناس أجمعين، بعد أن استيئس منها ومن إمكان استصلاحها!؟

وأما أن يوصف شخص المستظهر ب "المقدس!!"، وهو نعت لا يعرف له أصل في الإسلام، فزلة لا تغتفر من مسلم عادي، له بعض إلمام بمبادئ الإسلام، فما بالك بالغزالي الفقيه!؟!.

ثم، هل نعجب بعد؟، والرزية عامة، أن يأتي متأخرون سادرون في الغي والعي، يلقبون الغزالي بلقب: "حجة الإسلام"!، اللقب الذي ظل ولا يزال يطلقه الجعفرية والإسماعيلية على أئمتهم الخرافيين الأسطوريين المتخفين أو المغيبين المتسمين عندهم بالمهادي! ليعمموه على بعض فقهائهم!.

وهو غلو لا يعرفه الإسلام ولا ورد به قرآن أو سنة[11].

وقد توالت مؤلفات الغزالي الدعائية، خدمة لهذه الأهداف المعلنة، ليصبح مكين الجانب، وواسع الحظوة لدى الوزير ومقدماً عنده، وهي ضريبة مرتفعة التكاليف على صعيد الضمير والإخلاص، كما سيقرر رحمه الله لا حقاً في كتابه "إحياء علوم الدين"[12]، حتى وإن رفعت من رصيده ورأسماله الرمزي الآني، كفقيه سلطة إلى ذرى غير مسبوقة لصالح دنياه على حساب آخرته، حيث كان يتزاحم على حضور دروسه ومجالسه أزيد من ثلاثمائة من أشباه العلماء، وأشباه الفقهاء، من وجهاء الدولة المبرزين وصنائعها الأرذلين وبطانتها السوء!.

---

[11] أنظر كتابنا: "المهدي اللامنتظر لا عند اليهود ولا عند الشيعة ولا عند السنة ولا عند البرتغال".

[12] أنظر ما كتبه في "الإحياء" (2: 155) تحت عنوان: "فيما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة وما يحرم، وحكم غشيان مجالسهم والدخول عليهم والإكرام لهم".

سيقول الغزالي بعد توبته من كل هذا، في حق أموال السلاطين[13]:

{إن أموال السلاطين في عصرنا حرام كلها أو أكثرها، وكيف لا والحلال هو الصدقات والفيء والغنيمة لا وجود لها وليس يدخل منها شيء في يد السلطان؟ ولم يبق إلا الجزية وأنها تؤخذ بأنواع من الظلم لا يحل أخذها به. فإنهم يجاوزون حدود الشرع في المأخوذ والمأخوذ منه والوفاء له بالشرط، ثم إذا نسبت ذلك إلى ما ينصب إليهم من الخراج المضروب على المسلمين ومن المصادرات والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشيره!}.

وقد خصص نظام الملك الفصل التاسع والعشرين من كتابه: "سياسة نامه" الذي حمل عنوان:

"في ترتيب مجلس الشراب وشروطه"

وجاء فيه:

{السلطان عائل العالم!، وأهل العالم جميعاً عياله وعبيده!. ويقضي الواجب بألا يحمل إليه الطعام والشراب من دور من هم عياله المتقلبون في نعمه. أما إذا حملوا معهم شرابهم، لأن الساقي الخاص يدير عليهم شراباً غير طيب، وجب أن يعاقب الساقي ويؤخذ، بأن لديه من الخمر طيبها وخبيثها، فلماذا يدير عليهم خبيثها؟ وذلك لكي يزول ذلك العذر.}

قلت:

ولم يلتفت الغزالي في نقديته اللاحقة لهذا المجتمع المخملي بذكر مثالب ولي النعمة!.

وسوف يتربع الغزالي فوق عرش هذه المظاهر الدينية الاستعراضية البالغة الزيف، غير عابئ ولا آبه بما يجري حوله من مظالم، ولا ما يرتكب في حق الأمة من جرائم، مبهوراً بسطوع شمس الوزير نظام الملك، يشقشق الكلام مع المخالفين، ويسفسط الحجج والبراهين والأدلة مع المسفسطين، ويفلي رأس الأصلع بحثاً عما لا يوجد فيه من خشرات، كي يقضي عليها بالضربة الافتراضية القاضية جدلاً لا وجوداً!. وحولهما التفت ولفت باقي طواويس المعرفة الزور من: قضاة، وفقهاء، ومتكلمين، وندماء متعالمين في عالم وهمي من صنيع خيال هذا الجمع الفاجر والفاسق في أغلبه.

وسيصف الغزالي قضاة عصره بعد توبته رحمه الله بقوله[14]:

---

[13] أنظر: "الإحياء" (2: 152)، ط. ثانية: 1412 هـ/1992 م، دار الكتب العلمية، بيروت.
[14] "الإحياء" (2: 164).

معاملة قضاتهم (أي السلاطين) وعمالهم وخدمهم حرام كمعاملتهم. أما القضاة، فلأنهم يأخذون من أموالهم الحرام الصريح ويكثرون جمعهم ويغررون الخلق بزيهم، فإنهم على زي العلماء ويختلطون بهم ويأخذون من أموالهم والطباع مجبولة على التشبه والاقتداء بذوي الجاه والحشمة. فهم سبب انقياد الخلق إليهم (...)

وبالجملة، إنما فسدت الرعية بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء. فلولا القضاة السوء والعلماء السوء لقل فساد الملوك خوفاً من إنكارهم.

وسيقول عن سيرة الفقهاء ومثالبهم في عصره[15]:

فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه، ثم لا ترى أحداً يشتغل به، ويتهاترون على علم الفقه، لا سيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع.

فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة وإهمال ما لا قائم به!؟.

هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تولي الأوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الأقران والتسلط على الأعداء؟. هيهات هيهات، قد اندرس علم الدين بتلبيس العلماء السوء.

وسيقول أيضاً[16]:

إن فساد الزمان لا سبب له إلا كثرة أمثال أولئك الفقهاء الذين يأكلون ما يجدون ولا يميزون بين الحلال والحرام، فتلحظهم أعين الجهال ويستجرئون على المعاصي باستجرائهم، اقتداءً بهم واقتفاءً لآثارهم. ولذلك قيل:

ما فسدت الرعية إلا بفساد الملوك وما فسدت الملوك إلا بفساد العلماء.

فنعوذ بالله من الغرور والعمى فإنه الداء الذي ليس له دواء.

وسيقول أيضاً [17]:

فأكبوا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاة وتعرفوا إليهم، وطلبوا الولايات والصلات منهم، فمنهم من حُرم ومنهم من أنجح، والمنجح لم يخل من ذل الطلب ومهانة الابتذال، فأصبح الفقهاء، بعد أن كانوا مطلوبين، طالبين، وبعد أن كانوا أعزة بالإعراض عن السلاطين، أذلة بالإقبال عليهم، إلا من وفقه الله تعالى في كل عصر من علماء دين الله.

---

[15] أنظر: "إحياء علوم الدين" (1: 32-33).
[16] "الإحياء"(2: 259).
[17] الإحياء" (1: 55).

قلت:

وقد تحكمت هبات وأعطيات نظام الملك في رقاب الجميع، بسبب هذه الهدايا والأعطيات، التي كانت تقتطع من قوت ملايين المحرومين، لينثرها في نزوة أو نزق فوق رؤوس هؤلاء المحظوظين، الذين استداروا حوله في أفلاكهم، قرباً أو بعداً منه، بحسب منازلهم عنده، يستضيئون بما استطاعوا اختلاسه منه، من رضا، في مثل هذه المقامات والمجالس النديمية التي لا ينفك عنها حرام، أو تناثر من التفاتاته نحوهم، بألبستهم الفضفاضة المبرقعة الألوان، وعمائمهم الغريبة الأشكال والثقيلة الأوزان، التي لا شك قد أصابت من ثقلها، رؤوس بعضهم بدوار، كل بحسب مركزه وحظوته ومقامه، على ما سيثور عليه الغزالي لاحقاً، والمتظاهرين مع ذلك، بالتدين الشكلي، والتصنع المفتعل، والتملق المنمق، والنفاق اللافت!، حتى وهم يعاقرون المحرمات جهاراً، وليلاً ونهاراً.

ولربما، كان لحياة الغزالي أن تنتهي عند هذا الحد وهذا الأفق الذي أدركه، لولا تدخل الأقدار بما سبق به الكتاب، وجريان الرياح بما لا تشتهي أشرعة سفينته رحمه الله، حيث سيتمكن الحشاشون الإسماعيليون[18]، من اغتيال شمسه وولي نعمته نظام الملك من طرف أحد فدائييهم[19] في الثاني عشر من شهر رمضان سنة 485 هـ، ليتناثر الغزالي خارج مدار فلكه مبعثر الأوصال، ومقطع الأحشاء، نفسياً ووجدانياً، بعد أن فقد جاذبية المركز، وليحاول بعد لأي وعناء مضنيين، لملمة ذاته وجمع أشتات روحه التي كادت أن تتبعثر في العبث واللامعنى الدنيوي الفاني، لاهية عن ذكر الله وعن الآخرة، وليكتشف من جديد، ما كان قد اكتشفه من قبل، يوم أن أدخلهما وصيهما الصوفي مدرسة، ليس بغرض التعلم من أجل العلم، الذي لم يكن يؤمن به الصوفية، الذين كانوا يدعون دائماً بأنهم على الخط الساخن بين السماء والأرض، ينهلون من العلم اللدني، من الكتاب المحفوظ نفسه!، متى شاءوا وكيف شاءوا وعند الطلب، كما سول لهم شيطانهم!، وإنما ليحصل لهما قوت، بعد أن نفذ ما كان قد تركه له ولأخيه والدهما الفقير ليقول الغزالي يومها[20]:

---

[18] أصحاب الحسن بن الصباح (428 هـ - 518 هـ) صاحب قلعة ألموت (عش النسر) في شمال فارس. وكانوا يعرفون باسم الفدائيين. وكان الواحد منهم يهجم على ضحيته وهو موقن بالموت، لذلك لم يجد الملوك حيلة تدرأ عليهم مثل هذا الخطر. وكانت القلعة مقامة على صخرة عالية في قلب سلسلة جبال البورج الشاهقة، التي ترتفع بعض قممها إلى حوالي 6000 متر عن سطح البحر. والقلعة زيادة على ذلك، لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق ممر ضيق وعر شديد الانحدار وكثير الانعطافات، مما يصعب من اقتحامها، أو حصارها. وكانت تتمتع بميزة استراتيجية إضافية وهي كونها تشرف على سهل وادي حصين يصلح للزراعة، مما جعلها تلبي متطلبات الحسن الصباح على أكثر من صعيد. ولن يتمكن سوى هولاكو التتري من القضاء على الحشاشين في حملته على قلاعهم سنة 653 هـ..

[19] قتله أبو طالب أراني من أتباع الحسن الصباح، الذي استطاع الاقتراب من محفته متخفياً في ملابس الصوفية ومدعياً أنه صاحب حاجة. فلما اقترب من الوزير أخرج سكيناً وقتله بها. وكانت هذه أول عملية اغتيال سياسية سيكون لها ما بعدها، حيث سيتمكنون من قتل فخر الملك ابن نظام الملك سنة 500 هـ وغيرهما.

[20] أنظر ترجمة الغزالي في: "إحياء علوم الدين" (1:3)، ط. ثانية 1412 هـ/1992 م، دار الكتب العلمية، بيروت.

طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله

في هذه الحقبة التاريخية المفصلية من حياته بنظامية بغداد، ألف الغزالي أول كتاباته العقدية ضد الباطنية بطلب من الخليفة العباسي المستظهر بالله وسماه "**المستظهري**" أو "**فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية**"، مستنبطاً إياه كما يقول، من كتاب "**كشف الأسرار وهتك الأستار**" للمتكلم الأشعري **أبي بكر الباقلاني** (ت: 403 هـ) الذي كان قد عرض لتفنيد أباطيل الباطنية في هذا الكتاب[21].

ثم انصرف إلى دراسة الفلسفة من خلال مؤلفات مروجيها المبرزين في الحاضرة الإسلامية وهما: **أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي** (870 م – 951) (صورة متخيلة للرجل كما لغيره !) 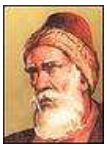 و**أبو علي:** الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي **بن سينا (370هـ /980 م - 427هـ /1037م)** 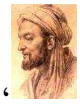 ، ليؤلف كتاب "**مقاصد الفلاسفة**" كمقدمة لكتابه الآخر: "**تهافت الفلاسفة**"، الذي سيشنع فيه على الفلاسفة ويبين عوار منطقهم واختلافاتهم وعدم تساوق منطقهم في دعاواهم.

قلت:

وهو هجوم يدخل ضمن خطاطته العامة التي كان يتوخى من ورائها، ضرب المصادر التي تستقي أو تمتح منها الباطنية أفكارها في العين والمنبع، ليستغني عن مقارعة أراذل الأتباع عند المصبات.

إنتهى ويليه الجزء الثاني

[21] قال الغزالي في "الإحياء" (2: 154): { وقد ذكرنا في كتاب "المستظهري" المستنبط من كتاب "كشف الأسرار وهتك الأستار" تأليف القاضي أبي الطيب (هو أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني الأشعري المذهب (338 هـ - 403 هـ) في الرد على أصناف الروافض من الباطنية ما يشير إلى وجه المصلحة فيه}.

نداء الخرقة